

## شخصية الفاتح

محمد الثاني من أقوى الشخصيات الممتازة التي تولت السلطنة العثمانية وأعظم معاصريه على وجه الإطلاق ومن أكبر شخصيات العالم. تولى الإشراف على أمور الدولة العثمانية وهو أعز ما يكون نضارة في الشباب وقوة في الجسم ، تولى الملك وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ولد في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هجرية ، ٢٠ إبريل سنة ١٤٢٩ ميلادية ، ولا ريب أن هذه سن مبكرة لمن يتولى مهام الحكم الجسيمة لدولة عظيمة ناشئة كالدولة العثمانية . ولكن والده السلطان مراد الثاني كان قد اهتم بتربيته اهتماماً خاصاً ، وأحسن اختيار من يقوم على تعليمه وتدريبه .

لقد تدرّب محمد على أمور الملك عملياً قبل وفاة والده ، فلقد تولى أمور السلطنة فعلاً مرتين حينما آثر السلطان مراد الثاني اعتزال الملك والانصراف إلى حياة الراحة والاخلاد إلى السكينة . عرف محمد كيف يتحمل المسؤولية في حياة أبيه ، وعرف كيف يواجه مشاكل الدولة والحكومة ، وخبر الرجال وكشف مواطن الضعف في نفسه وعمل على معالجتها ، ودرس نظم الدولة الداخلية وقدر مهمتها الخارجية ومشاكلها

الدولية . ومما يروى أثناء توليه السلطنة في حياة أبيه أنه باشر أعمال الملك بنشاط وحماس ، ولم يلتفت إلى آراء ذوي الخبرة ممن حوله من وزراء أبيه مما اضطرهم إلى شكواه إلى والده فلقد بعث خليل باشا الصدر الأعظم إلى مراد بخطاب يقول فيه : « إن هذا السلطان لازال صغيراً في السن وليس لديه اضطلاع بأمور الملك ، وليست له التجربة الكافية وخاصة في الأمور الحربية ، ومما يزيد الحالة سوءاً أنه لا يستمع لغير نفسه ويرفض تقبل النصائح التي تسدى له بدرجة أنك إذا لم ترجع إلى العرش سيصبح شعبنا في خطر عظيم » .

كان هذا درساً للسلطان الصغير لم ينسه طول حياته ، فلقد عرف كيف يستمع لنصيحة والده ، ويقدر من حوله وكيف يدرس الأمور بنفسه ، وكيف يحسن سياستها ، وينحني أمام العاصفة إلى أن تنتهي ، عرف مجد كيف يضبط نفسه ، وكيف يدرس خدامه وجنوده ، ولا سيما الانكشارية . فخير اقتدارهم على الخير والشر ، فاهتم بمسائل النظام أعظم اهتمام .

وجد مجد الثاني أباً له من أعظم سلاطين آل عثمان ، وكانت أمه مسيحية كما نقص رواية حياته ، فامتزجت فيه أحسن صفات الشرق والغرب في ذلك الوقت ، وإذا كان للوراثة والبيئة أثرهم في حياة

الإِنسان وصفاته وأخلاقه ، فلقد ورث عن أبيه الجلال والشجاعة وشدة  
المراس والصبر على المكاره وعدم اليأس ، كما أخذ عنه المعرفة بأمور  
الحرب والإِتقان في وضع الخطط الحربية وحصار المدن وقيادة العمليات  
الحربية .

كان السلطان محمد الثاني قهجي اللون متوسط الطول متين العضلات  
كبير الثقة بنفسه ذا بصر ثاقب وذكاء حاد ومقدرة على تحمل المشاق ،  
يحسن ركوب الخيل واستعمال السلاح . كان محباً للتفوق ميالاً للسيطرة  
طموحاً سريعاً في فهم المواقف ، يحسن معالجة الأمور ، كبير اليقظة ،  
يحيط بتفاصيل الأشياء ويدرك بسرعة أهم مواضعها .

علمه أبوه فأحسن تعليمه فنشأ ذلك الرجل مثقفاً ثقافة حقيقية  
كأحسن ما تكون ثقافة إنسانية شرقية في عصره ، فلقد كان ملماً بجملة  
لغات أجنبية ، فكان يحسن إلى جانب لغته الأصلية التركية العربية  
والفارسية والأغريقية ويفهم الإيطالية ، وكان بجانب إلمامه بهذه  
اللغات واسع الاطلاع في آدابها يتذوق الجميل منها .

نشأ مهتماً بدراسة التاريخ مفرماً بقراءة سير العظماء والأبطال ،  
ققرأ أبا معان حياة القياصرة أوغسطس وقسطنطين الأكبر وتيودوسيوس  
الأكبر ، وأعجب بشخصية الاسكندر الأكبر المقدوني أيما إعجاب ،

فلقد لمح فيها صورة من نفسه ، رأى فيها قوة النفس وصحة العزم وسرعة التنفيذ بعد إحكام الخطة وعدم التردد . كان ذهنه كذهن الاسكندر من قبله مملوءاً بالمشاريع مكتظاً بالخطط ، وكان عقله خزانة لأسراره فهو يحتفظ بها ، يكتمها ولا يعلن بها إلى أحد إلا في الوقت المناسب حينما يقدم على تنفيذها .

كان محمد الثاني يحب الفنون لا سيما الموسيقى والرسم ويتذوق الأدب ويحفظ الشعر الجميل ويقوله ، ويهتم بدراسة الفلك ، وكان يحسن استغلال دراساته في تقويم نفسه وإصلاح عقله والتأثير على المحيطين به . ولكن حياته كانت حب الحرب فاضطلع بفنونها أيما اضطلاع ، وما كان يعلم بأى اختراع حربي إلا ويكون السباق إلى معرفته واستكماله والاستفادة منه ، ومن ذلك اهتمامه الكبير بالمدفعية وبالبحرية .

كانت حياته بسيطة لا تعدو القراءة والتدرب على الحرب ثم الصيد ، كان عدواً للترف منصرفاً عن حياة إرضاء الشهوات ، كانت عاداته غير معقدة ، ومبادئه بسيطة ، ولم يكن له ندماء ولا محظيات بالمعنى الذي يفهمه سلاطين ذلك العصر الماضي وملوكه ، فعاش وحيداً بعيداً عن الاختلاط المبتذل في جو كله هدوء ، كله ثقافة وعلم ، أو جو صاحب هو جو الهيجاء والنزال والنضال والحرب .

عاش عهد الثاني في جو ساد العالم فيه خشونة وقسوة ، في وقت كله حماس ديني وتعصب في آسيا وأوربا ، فلقد دام النضال بين المسيحية والإسلام مدة طويلة زادت فيها الأحقاد وهببت إلى أعماق النفوس فغنت روح البغض وحب التشفى والانتقام . ولذا ظهر في بعض تصرفات السلطان الفاتح بعض الشدة والعنف ، وإن كان ذلك بخلاف والده الذي كان دائماً رقيق الجانب مشهوراً بالعطف والرحمة وحب العفو . وربما لم تكن هذه الشدة وذلك العنف في طبيعة السلطان محمد الثاني ، فهو رجل قد سمعت نفسيته وانصقل ذوقه واتسع أفقه ، ولكن العصر كما قلنا كان عصراً قاسياً وغير رحيم .

فإذا كان قد ظهر أثناء فتوحات هذا السلطان بعض العنف ، فربما كان وليد ذلك العصر الذي تحمس فيه المساهون للجهاد والتوسع والفتح ، وتحمس فيه المسيحيون لدينهم وناضلوا نضال المستميت للدفاع عن حرياتهم ، واشتد ذلك الصراع والنضال بين الفريقين إلى درجة تلاشى معها العطف والعفو بين الفريقين .

حبا لله ذلك السلطان المواهب الممتازة والمقدرات العظيمة ، فهو سياسي بعيد النظر يحسن انتهاز الفرص ، وكرجل من رجال الحرب هو من الطراز الأول لا يدانيه أحد في عصره .

كان السلطان محمد الثاني يهتم اهتماماً خاصاً باختيار من يعاونونه في الإدارة والحكم ، وهو لا ينظر في ذلك إلى الهوى الشخصي وإنما ينظر إلى المصلحة قبل كل شيء ، وكان يرى بنفسه أن أوامره تنفذ بكل دقة .

ولم يكن ممتازاً في الناحيتين الثقافية والعسكرية فحسب ، فكانت كفايته الإدارية والقانونية عظيمة ، فلقد أنشأ دولة عظيمة ، وبني ملكاً كبيراً ، وقضى على دولة كانت في يوم من الأيام لا تقهر ، فلا بد إذن من وضع تنظيم جديد وإصدار قوانين جديدة تتناسب ودولته المجيدة ، فمحمد الثاني هو الذي وطد دعائم الملك العثماني في داخل إمبراطوريته الكبيرة ، فاكتمل للعثمانيين النصر الخارجي وقتئذٍ لهم القوانين ، وعمل على استقرار الحالة الداخلية .

لقد أدعى مؤرخو عصر الفتح من الأجانب أنه لم يكن كبير التعلق بالدين ، وقالوا إن ذلك نتيجة طبيعية لثقافته الواسعة والظروف التي قامت فيها دولته ، ويدلون على ذلك بتسامحه مع الكنيسة الأخرى . وهذه الدعوى باطلة من أساسها فالحوادث تظهره شديد التمسك بالدين ، عظيم الأكرام لأهله ، كريم الخلق ، شديد التواضع لله دائم الحمد له ، وإذا كان قد أظهر التسامح مع الكنيسة الأخرى

هكذا لا ينقص من تدينه ولا يتعارض مع تسليم الدين الاسلامي الحنيف . ومن المعروف عن السلطان الفاتح أنه كان ينظر إلى الأمور بعين السياسي القدير المتسامح لا المتعصب الضيق الأفق ، ومهما يكن من شيء فان أعمال الفاتح وفتوحاته ومجهوداته كانت كلها في سبيل رفعة الاسلام والسمو بمركزه ، ووفق في ذلك توفيقاً نادر المثال ، وكان أعظم أعماله القضاء على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية .

---

## تداعى الدولة البيزنطية

لقد كانت الامبراطورية البيزنطية التي عرفها العثمانيون واحتكوا  
بها جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية السابقة ، كانت دولة  
قد سيطر البنادقة والجنويون على حياتها الاقتصادية ، وكانت كثيراً  
ما تقع فريسة لعدوانهما وأطماعهما . وكثيراً ما وجدت نفسها حائرة  
بينهما إذا صادقت فريقاً اعتدى عليها الفريق الآخر .

عمرت الدولة البيزنطية أو الدولة الأخرية نحو ألف عام قاست  
في خلالها من المحن والأهوال ما لم تقاسه دولة أخرى ، وداهمتها خطوط  
لو أنها داهمت دولة غيرها لقصت عليها قضاءً مبرماً ، ومرت في أزمت  
داخلية وخارجية عظيمة ، وأدت للمسيحية ولأوروبا المسيحية خدمات  
جليلة تكل تحت عبئها أعظم الدول وأقواها .

ولكن الدول كالأفراد تماماً لها صباها ولها شبابها ولها كهولتها  
وهرمها ، ففي القرن الرابع عشر الميلادي أخذ الهرم والهزال والسقم  
يدب حقيقة في جسمها ، فشلت قوتها ، ونالها الاضمحلال فأوشكت  
على الانهيار ، هذا في الوقت الذي كانت فيه نظم الأتراك العثمانيين  
تزداد كل يوم إحكاماً وقوة ، وتسعى للحياة والعظمة ثابتة متفوقة . . .

سيطر في هذه الدولة نظام الملكية الامبراطورية ، وهي ملكية مستبدة مقدسة ليس لسلطانها حد ، فهي مستمدة من الله مباشرة كما كان يعتقد في ذلك الوقت . فالامبراطور ملك وقسيس معاً فهو إذن فوق القانون ، وهو رأس الهيئة التنفيذية ، وفي يده تتركز السلطة التشريعية ، وهو يشرف على الإدارة ويحكم الكنيسة كما يحكم الدولة . وتمتع الامبراطور البيزنطي في ظل ملك ثابت الأوتاد بفخامة وعظمة لا مزيد عليهما ، ورأى من أيام المجد ما لم يدانه إلا أيام البؤس ، فكانت الثورات كثيراً ما تقوم عليه حتى من أفراد عائلته بل من أولاده وأخوته فتمضى على قوته وتترع ملكه ، فمات عدد كبير من الأباطرة غدرًا أو هلكوا في ميادين القتال وهم يعماون على قمع ثورات هاجت عليهم .

في الملكية المستبدة يعتمد كل شيء في الدولة على ميول الحاكم وهواه وشخصيته إن كانت ضعيفة أو قوية ، خيرة أو شريرة ، صريحة أو ماكرة معوجة ، وعلى خبرته في الحياة وفي الحكومة ، في مثل هذه الملكية يصبح قصر الحاكم مقر الدولة الحقيقي ومركز كل شيء ، ومصدر كل سلطة ، وفيه توضع المشاريع والخطط ، فتنشأ الدسائس وتدور المؤامرات . ففي ذلك البلاط البيزنطي الممتلئ بنوى الأطماع وذوى

الأحقاد والحافل بالرقيق المجاوب من كل مكان وبالنساء والموظفين  
كثرت الدسائس ، وفكر كل شخص في نفسه قبل كل شيء وتتابع  
سقوط الوزراء ونبغ ذوو الشخصيات القوية أو من يستطيعون التقرب  
والزلفى والتقلب مع الزمن .

والواقع أن تاريخ الامبراطورية البيزنطية مملوء بالثورات والنزعات  
والانقلابات السياسية . وبالرغم من أن النساء حجزن وراء الأسوار  
والحيطان فقد لعبن دوراً مهماً في حياة هذه الدولة المديدة الأجل ،  
ومن قرأ التاريخ البيزنطى ولم يذكر اسم تيودورا أو إيرين ؟  
وتجمعت مزدهمة حول الامبراطور أرستقراطية قوية تحمل كثيراً  
من الوظائف الهامة فى الدولة ، وتمتع بجانب كبير من الجاه والثروة  
والنفوذ ، وتهتم بالمأكل الغذى المتنوع والملبس المترف ، وتركن  
إلى حياة اللذات والشهوات .

قامت إدارة الامبراطورية فى الأصل على أساس نظم حربية  
فالبيزنطيون يعتبرون أن قيمة الجيش للدولة كقيمة الرأس بالنسبة  
للجسم ، ولذا كان الاهتمام به دائماً عظيماً ، وكلما كان الجيش قوياً  
ومنظماً طالت حياة الامبراطورية ونعمت بمركز قوى فى أوروبا  
وآسيا ، واستطاعت أن ترد أعداءها على أعقابهم خاسرين .

وكانت الامبراطورية تجند في مبدأ الأمر أهالى البلاد، وبجانب هذا لجأت إلى استخدام الجنود المرتزقة لشقتها فيهم، فامتد كانوا محترفين للحرب ولهم دراية بفتنها، ثم هم أقوى أجساماً وأصلب عوداً من الأهالى وأقدر على تحمل الصعاب والمكاره، وكان الامبراطور عادة كريماً في معاملتهم لا يضمن عليهم بالمال، بل ويمنحهم الأراضى الكثيرة وجعلها وراثية في أبنائهم من بعدهم.

وتبعاً لذلك النظام كان الجيش خليطاً من شعوب مختلفة عديدة مكوناً من عناصر غربية لا يجمع بينها سوى حب المال والثراء والمفاصرة وفي كثير من الأحيان حب السلب والنهب والفتائم، فكانت هذه العناصر متباينة من حيث الميول والجنس واللغة والدين، ففيه الأوروبيون والأسسيويون وفيه القوط والهون والصقالبة والترك والعرب والأسبان والايطاليون والألمان ورجال الشمال من روسيا واسكنديناوه.

لقد كان لهذه الجنود أحياء خاصة في القسطنطينية تكاد تكون مستقلة وكان لا بد لهم من قيادة حازمة قوية تستطيع كبح جماحهم وإيقافهم عند حدهم، وحين مس الدولة العجز في هاتين الناحيتين قاست الدولة من هؤلاء المرتزقة الأصرين، فكانوا أخطر الناس على

حياتها ونظامها من الأعداء انظار جيئين ، إذ كانوا أدرى من غيرهم  
بمواطن الضعف فى الدولة .

أما من حيث القوة البحرية ، فلقد كانت الدولة البيزنطية ، بحكم  
موقعها الجغرافى وإرثها التاريخى دولة بحرية ممتازة . وإلى القرن الثامن  
كان أسطولها من القوة بحيث استطاعت الاشراف على البحار الشرقية  
حيناً من الدهر طويلاً . وإلى الأسطول يرجع الفضل فى إنقاذ حياة  
الدولة مراراً . ثم أهمل الأسطول نسبياً فترة من الزمن ، أولاً لأن  
الحرب مع الخلافة العباسية ، أكبر أعداء بيزنطة ، كانت حرباً برية  
قبل كل شىء . ثانياً لخشية الأباطرة ازدياد قوة رجال الأسطول إلى درجة  
ينحاف منها على الامبراطورية نفسها . ومن هنا كانت الدولة البيزنطية  
عاجزة عن المحافظة على جزر الارجنيل اليونانى من غارات المساهين  
حين سيطر هؤلاء على جزيرة كريت ثم على جزيرة صقلية .

وفى نهاية القرن التاسع الميلادى عاد للدولة رشدها فقررت إعادة  
تنظيم الأسطول ، وبهذا أصبحت أول قوة بحرية فى البحر الابيض  
المتوسط ، واستمر ذلك التفوق غير منازع إلى أوائل القرن الثانى عشر  
ثم عاد إلى الدولة الضعف فى هذه الناحية بصفة خاصة حين فتح الاتراك  
السلاجقة معظم آسيا الصغرى ، فخرمت بيزنطة من هذه المناطق البحرية

التي كانت تجلب منها أحسن بحارتها ، ولذا اعتمدت على بحريات الدول الأخرى مثل بيزا والبندقية وجنوة ، وأهملت تماماً الإيحاء البحري ، بل واعتبرت الأسطول مجرد مضيعة للوقت والمال .

ولم تعد للملكية الامبراطورية في العهد الأخير هيبتها ولا مقدرتها على الإدارة والحكم . ولم تكن الأمور بمستقرة للامبراطور البيزنطي في داخل الدولة ، ولم تكن ظروفه الخارجية بأحسن حالا ، فلقد تعددت الثورات السياسية العنيفة ، وقام على العرش نزاع يكاد يكون مستمراً بين أفراد العائلة الامبراطورية ، واستعان كل مطالب بالعرش بالفرق والأحزاب المختلفة بل وبالعناصر الأجنبية من الجنسيات المتباينة المحيطة بالدولة ، واستخدم كل منهم الجنود المرتزقة واعتصم بأعداء الدولة ، وتدخلت الجمهوريات الايطالية لصالحها الخاص ، كما تدخل الكتلان والامارات التركية المبعثرة في الأناضول .

تدخلت كل هذه العناصر تنصراً فريقياً على فريق وتقوم بالسلب والنهب إذا سنحت لها الفرص فتخربت أراضى الدولة مما فتت في عضد الامبراطورية وألحق بها الضعف الذي أنهك قواها ولم تجد منه براء . كذلك لم يكن استخدام الجنود المرتزقة في آخر الأمر في مصلحة الامبراطورية ، فهؤلاء جنود غرباء لا تربطهم بالوطن البيزنطي

ولا بأهالى الدولة وشائج القرابة والنسب ، ولم يدفعهم نخلة الدولة سوى  
رغبة واحدة هى الكسب المادى ، ولذا فهم لا يرعون إلا ولا ذماماً ،  
ولذا فهم مستعدون فى كل لحظة للشورة وللانضمام إلى أعداء الدولة إذا لم  
تستطع بيزنطة إجابة مطالبهم التى لم تكن تنتهى . أصبح هؤلاء الجنود  
خطراً وبيلا على الدولة فاستولوا على مدنها وخربوا قراها . لقد نهب  
المرتزقة من الأتراك مرة سرادق الامبراطور نفسه حين فكر  
فى التخلص منهم .

ثم إن فقدان الدولة البيزنطية اهتمامها بالبحرية جعلها تحت رحمة  
البنادقة والجنويين الذين لم يكونوا مخلصين لغير مصالحهم المادية ،  
بل انتهزوا كل فرصة للنيل من هذه الدولة المنحلة وانتزاع الامتيازات  
منها والانتقاص من حقوقها ، فأشرفت الدولة على الإفلاس المادى ،  
ولو تمكنت الدولة من المحافظة على تفوقها البحرى لما استطاع الأتراك  
العبور بسهولة إلى الشواطىء الأوربية أو تثبيت أقدامهم فيها

\*\*\*

ومن أهم العوامل التى زادت فى ضعف الدولة البيزنطية نمو دولتى  
الصرب والبلغار وتقلص ممتلكات الدولة فى البلقان على أيديهم .  
ولم يستطع هؤلاء الصرب أو البلغار بعد أن قضوا على الملك

البيزنطى فى البلقان أن يقفوا متحدين أمام الهجوم العثماني . وفى نفس الوقت الذى وضع فيه الأتراك العثمانيون أقدامهم فى جاليبولى ، كان على الدولة البيزنطية التى حاقت بها النكبات من كل جانب أن تصد هجمات إخوانها فى المسيحية الصرب والبلغار ثم إغارات التتار . لقد حاولت الدولة البيزنطية محاولة اليأس أن تضم صقلية البلقان إلى جانبها لتكون جبهة متحدة مترابطة لمقاومة العثمانيين وطردهم من الأقطار الأوروبية التى احتلوها ، ولكن مساعيها ذهبت هباء منثوراً ، فما كانت رغبة صقلية البلقان فى دمار بيزنطة لتقل عن رغبة الأتراك العثمانيين .

ويضاف إلى انحلال النظم وضعف الحكومة سوء سياسة الدولة من الناحية الخارجية فكان أمامها فرص ثمينة لو انتهزتها وساعدها الحظ لاقت شر الأتراك إلى حين . ولم تستفد الدولة من انقسام الأتراك على أنفسهم فى مبدأ حياتهم بل تدخلت تنصر فريقاً على فريق ، ولم تتركهم يحاربون بواقعهم بأنفسهم ، لم تحاول بيزنطة الاتفاق مع التتار فى الوقت الذى تداعت أمامهم قوات العثمانيين . بل من الغريب حقاً أن تتفق مع فريق من العثمانيين لتثبيت دعائم ملكه وتقوية سلطانه .

كذلك لم تعمل الدولة مخلصاً على توثيق صلاتها بالغرب الأوربي  
بتردها في الاعتراف بتفوق رومه ، فلقد كان فريق كبير من سكانها  
يفضل سيطرة السلطان العثماني على سيطرة البابا . كان عزيزاً على  
بيزنطة أن تقبل راضية سيطرة رومه . لقد قبل الامبراطور قسطنطين  
اتحاد الكنيستين في آخر الأمر ، واحتفل بذلك في كنيسة سانت  
صوفيا ، ولكن بعد فوات الوقت ، وحين انتهى أجل الدولة فلم تستطع  
أن تستقدم ساعة أو تستأخر .

ثم توالى الظروف السيئة على الدولة فتضرعت للغرب الكاثوليكي  
وقبلت شروطه ، ولكن الغرب لم يقدم لها المساعدة الكافية ولا  
التأييد الخالص في محنتها العظيمة . بل إن الجنوبيين تعهدوا للسلطان  
حراد الثاني بنقل ستين ألفاً من جنوده إلى الشاطئ الأوربي

وما كانت الفوضى في الإدارة والحكم لتعمل على انتشار الأمن  
واستتباب النظام في أجزاء الدولة الباقية ، بل لقد دعته الحروب  
المستمرة إلى الإيعان في فرض الضرائب الفادحة مما دعا السكان  
إلى التدمير وتفضيل الحكم العثماني حيث يستطيعون أن يتمتعوا في ظله  
بالهدوء والسكينة والعدالة .

ومما أنهك الدولة واهتمت بحيويتها كفاحها الطويل المستمر أمام

أعداء أشداء غلاظ كثيرين لا يعصون أطماعهم ما أمرتهم ، فمن قبائل  
جرمانية إلى جموع صقلية إلى خصوم من الآلان والأفار والمارون والتتار  
والبulgاريين ، إلى غزوات العرب والصلبيين والبنادقة والجنويين  
إلى هجمات الأتراك التي لم تكن تنقطع ، وكل هؤلاء كانوا لا يرومون  
إلا دمار الدولة والقضاء عليها والاستيلاء على عاصمتها إلى أن كالت  
نهائياً ، وساءت حالتها المالية وفقدت معظم بلادها وخسرت قوتها  
ورجالها وسقطت في آخر الأمر صريعة الظروف أمام الغزو العثماني  
الغنيف المنتصر .

ولكن إذا كانت الدولة البيزنطية ضعيفة مفككة ، فلقد ظلت  
عاصمتها مدينة قسطنطين ، تحتفظ بجانب كبير من رونقها وبهاؤها .

---

## مدينة قسطنطين

عمرت مدينة القسطنطينية ألف عام بعد أن بناها الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر بتوسيع بيزنطة المدينة الأغريقية القديمة، ولقد اختار قسطنطين عاصمته الجديدة في مكان منيع يصعب الدخول منه ويسهل الدفاع عنه. وأصبحت رومه الجديدة — كما كان يطلق على القسطنطينية — حاضرة دولة عظيمة، ومركز حضارة سامية، ورمزاً لرقى باهر، ومصباحاً وهاجاً امتد نوره إلى الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، فترك فيهما آثاراً جلية باقية، وكانت مصدراً لا ينضب للإلهام ولوحى جديد في الغرب كما كانت مصدراً للعجاب والتقدير في الشرق.

لقد كانت هذه الحاضرة ناضرة مضيئة في وسط الظلام الحالك الذي كان يغمر العصور الوسطى في معظم أجزاء أوروبا ما عدا أسبانيا الإسلامية. كانت القسطنطينية مركز الذوق والفن والجمال والتفكير في كل أنحاء أوروبا المسيحية ولم تكن مجرد ناقلة للحضارة الأغريقية القديمة، فهي مدينة امتازت باتصالات مستمرة وثيقة بالشرق والغرب معاً، ففيها تقابلت الهلينية الأغريقية بالمسيحية الشرقية فكانت حضارة

بيزنطية ، تأثرت بالشرق الفارسي ثم الاسلامي وانتفعت بحضارته وتركت  
أثراً واضحاً في حياته .

كانت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية ، ورمز حضارتها ،  
ومركز ثقافتها ، وعنوان تمدنها ، وقلبها النابض ، وعقلها المفكر .

كانت القسطنطينية محط أنظار العالم الشرقي والغربي بأجمعه لمدة  
ألف عام ، هذه المدينة « المحروسة » الضخمة العظيمة الزاهرة ، باريس  
العصور الوسطى وهوطن العلم والفن واللذة والقداسة . هذه المدينة بجمال  
موقعها حيث يتقابل الشرق والغرب ، البر والبحر ، بجوها المعتدل  
الصحي ، وبميناؤها المحمية ، هذه المدينة العظيمة بميادينها العامة  
المتسعة وبواباتها ، وتماثيلها المبتوثة في كل مكان ، وبكنائسها الفخمة  
المتعددة وأسواقها التي لا تقف حركتها ، وملاعبها وحماماتها ، هذه  
المدينة الشهيرة بمصونها المنيعة ومعاقبها المشيدة وقفت أمام البرابرة  
من هون وأفار وبلغار وروس وصقالبة ، وحالت أمام آمال الغزاة  
والفاتحين من فرس وعرب وترك .

هذه المدينة كان يقصدها الناس من أقصى جهات أوربا ويتغنى  
بها الروسي على ضفاف أنهاره ، ويردد ذكرها الأوربي ، ويطمع  
في الاستحواذ عليها الشرقي .

هذه المدينة الخالدة بنيت على تلال سبعة تشرف على شواطئ  
أوروبا وآسيا ، وتنحدر بجبال وروعة إلى بحر مرمره ، وعلى المنحدرات  
هذه التلال لمعت القصور الامبراطورية .

أمّ هذه المدينة الناس من كل جانب ، وسكنتها أجناس مختلفة ،  
فوصل عدد سكانها في أوج عظمتها المسيحية إلى المليون .

ففيها الأغريق سكان المدينة الأصليين ، وفيها الأجانب ، فمن  
أسيويين بلحاهم الممتدة اللامعة وشعورهم السوداء ، إلى بلغاريين  
برؤوسهم المحلوقة وسلاسلهم التي تمنطقوا بها ، إلى روسيين بملابسهم  
الفرائية الثمينة ، إلى اسكندناويين بوجوههم البيضاء وشعورهم الذهبية  
المتوجة ، إلى أرمنين وصقالبة ، ازدحم فيها الناس من كل جانب  
رغشها التجار من كل صوب ، المسيحيون منهم والمسلمون فازدحم  
البنادقة إلى جانب الجنويين والأسبان والفرنسيين والمسلمين  
من بغداد وسوريا .

ويرى الناظر فيها الجنود المرتزة بأشكالها الخيفة وصلابتها  
وخشونتها تسير في المادين والشوارع الممتدة ، من فرنسيين وصقالبة  
وجرمان وإيطاليين وإسبان ، فاختلفت فيها الأديان وتعددت اللغات  
واختلفت وتباينت المشاعر والاحساسات .

عاشت هذه الأجناس القريبة فيها جنباً إلى جنب كجاليات  
أجنبية ، بعضها قوى عديد والبعض مترو قليل ، عاش البعض  
في أحياء مستقلة ، وتمتعت بعض هذه الجاليات بامتيازات كبيرة فلم  
تخضع لقوانين البلاد الأصلية ولا لتقاليدها .

وكانت حياة الأرستقراطية في المدينة حياة الأبهة والترف فرفلت  
في ملابس الحرير يحليها الذهب ، وتبخترت على جيادها الفخمة المنتقاة  
واشتركت في الدسائس وقامت بالثورات .

كانت القسطنطينية في أوربا مدينة الدنيا والدين ، فألى جانب  
فخامة البلاط الامبراطورى وقصور النبلاء الجميلة وملاهي الهبودروم  
والملاعب المكتظة باللاعبين والنظارة ، كانت عظمة الاحتفالات  
الدينية وأبرتها ، فله كانت كنيسة سانت صوفيا ، وللدنيا وللهو كانت  
الملاعب ، وحول هذه جميعها دارت الحياة في القسطنطينية .

في هذه المدينة الهائلة تمثلت حياة الدين بأجلى مظاهرها وأروعها  
وأرهبها ، وقامت الدراسات والمجادلات الدينية بنشاط واهتمام وحماس  
منقطع النظير ، فمن الامبراطور إلى النبلاء إلى رجال الدين إلى التجار  
أحب الناس جميعاً المناقشات الدينية وشغفوا بها . وكانت هذه المناقشات  
تنقلب في كثير من الأحيان إلى تنازع شديد وقتال تسيل فيه الدماء

فلم تخل هذه المناقشات والمجادلات الدينية من المطامع والاحقاد الشخصية والرغبات الدنيوية والمصالح الخاصة .

وظهرت في المدينة شتى الاعتقادات من أسماها إلى أدناها ، فكان فيها احترام الاولياء والاعتقاد في قدرتهم الربانية ومعارفهم الغيبية ، ووثق الكثير من الناس في تنبؤاتهم ، وبنوا على توجيهها حياتهم ، وانتشرت الخرافات والاساطير وصدقها الجم الغفير من أهالي هذه المدينة الزاخرة .

في هذه المدينة العظيمة كان الاهتمام كبيراً بتشديد الكنائس والاديرة والوقف عليها ، فكانت هذه منتشرة في أنحاء المدينة رمزاً للاحساس الديني العميق المتأصل في نفوس السكان ، وكان رجال الدين والرهبان موضع الاحترام الزائد والاكبار ، ولهم تأثير كبير على عقول الناس وسلطة واسعة وقوة حقيقية ، فلقد اعتقد الناس فيهم قوة إلهية وهواهب ربانية . وكان الاباطرة أنفسهم يظهرون التعلق بالدين ويوقرون رجاله توقيراً كبيراً ويقدمون أماكنه ، ففي سانت صوفيا التي شادها الامبراطور جستنيان كان يتوج الامبراطور ، وفيها يحتفل بالاعياد ، وهي فوق صفتها الدينية كانت مركزاً كبيراً من مراكز الحياة العامة .

كانت هذه الكنيسة من عجائب القسطنطينية ، فقتبها العالية  
وصفها المعاصرون وكأنها « معلقة من السماء بسلسلة ذهبية » . وكان  
جمال زخارفها ورواقها وأعمدتها ورخامها يبهر النظر . وأما مصابيحها  
الوهاجة وبخارها العبق ، وأما الحفلات الدينية التي كانت هذه الكنيسة  
عاصمة بها والآيات والأناشيد التي ترتل فيها والصلوات التي تقام فكانت  
تبعث في النفس الروعة وتشعرها بالجلال وتملؤها بالخضوع .

وبجانب ذلك الجلال والبهاء قامت التصور الفخمة العاصرة بالملذات  
والترف وانتشر الفساد الخلقى والرشوة ، وقامت أما كن كان يباع فيها  
الشرف والعرض وكل فضيلة إنسانية في سبيل متاع وقى زائل .

واهتم الأغنياء باشباع البطون واقتناء الأيقونات وأدوات الزينة  
وبالشبهوات ، وقامت أما كن اللهو والملاعب يمر فيها القواد المنتصرون  
يسير خلفهم أسرى الحرب ، هذا في وقت عز القسطنطينية . وجرى  
في الملاعب سباق العربات ومنازلة الرجال ومصارعة الحيوانات وأعمال  
الأكروبات ومهازل المضحكين . وفي هذه الملاعب عبر الناس  
عن أفكارهم ، عن رضاهم واستيائهم . وفيها كانت توضع بذور الثورة  
وتقوم الثورات التي قد تهز عروش الأباطرة البيزنطيين .

وقامت بيوت الفساد والدعارة إلى جانب الكنائس والأديرة ،

وكما فاقت هذه المدينة المدن الأخرى في العظمة والفضيلة فاقتها في الفوضى والردائل . فمن الميادين العظيمة تعرجت الأزقة المظلمة الموحلة وامتلات بالكلاب واللصوص وقطاع الطرق ، وكثرت فيها حوادث السرقة والاختيال والغدر والقتل .

كانت القسطنطينية مدينة ثقافية ممتازة ، فركزها في شرق أوروبا كمرکز رومه في غربها ، وهي في ثقافتها متأثرة بالقديم إلى حد كبير ، محتفظة بالتراث الأغرريقي . فكتبها الكبيرة مملوءة بالكتب الأغرريقية مزدهمة بالقارئین والدارسين ، وكان الأدب اليوناني محور الثقافة والتعليم ، بجانبه دراسة الكتاب المقدس وقصص القديسين والشهداء والحساب والموسيقى والأجرومية والبلاغة . لقد كانت جامعة القسطنطينية مركز الثقافة اليونانية موئل الدراسات الكلاسيكية . ومن هذه المدينة العظيمة تعلمت إيطاليا فلسفة أفلاطون ، ومنها أخذ العرب القانون وجانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، وإذا كان لهذه المدينة تراث يخلد ذكرها في العالم فهو الأدب الأغرريقي والقانون الروماني ، فأباطرة القسطنطينية هم الذين جمعوا القوانين الرومانية ، إرث رومه العظيم ، وقتنوها ونشروها .

وتمتع سكان هذه المدينة العظيمة بامتيازات لا يشاركهم فيها أحد

فكانوا معفين من الضرائب توزع عليهم الحكومة مجاناً ما يلزمهم من الخبز والنبيد والزيت ، وذلك حين كانت ثروة الامبراطورية عظيمة ورزقها متوفراً وجانبها مهاباً .

والقسطنطينية مدينة صناعية وتجارية عظيمة بحكم موقعها الجغرافي المنقطع النظير في ذلك الوقت . فهي تقع في موضع ممتاز للاتصال بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين البحر الأسود والبحر الأبيض ، فهي من صرا كز العالم المهمة في ذلك الوقت للتجارة ، تأتي إليه المتاجر عن طريق البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ، من فارس والهند والشرق الأقصى وأواسط آسيا ، من اسكنديناوه وشرقي أوروبا وغربيها ، متاجر العالم المعروف في ذلك الوقت تجمعت في القسطنطينية وآوت إليها السفن من كل فج فكانت مينائها في القرن الذهبي تفتح بحركة دائمة وسهلت الحكومة البيزنطية كما سهلت الحكومة العثمانية من بسدها وسائل العيش والاتجار وتبادل المنافع ، واشتهرت أسواقها بمواد الترف والزينة والمصوغات والأيقونات والعطور والمنسوجات الحريرية والكتانية الجميلة ذات الألوان الساطعة اللامعة ، وإلى جانب التجار وجد الصيارفة يزاولون مهنتهم بنجاح كبير .

لقد تفوقت القسطنطينية كما رأينا على غيرها من المدن في مظاهر

الحياة ، وكان موقعها ومناعتها وغناها وثروتها ومبانيها ومباهجها ومركزها  
في العالم المسيحي من الأمور التي دعت الشرقيين من العرب والأتراك  
إلى محاولة الاستيلاء عليها وتحويلها من حاضرة للمسيحية إلى مركز  
مهم للإسلام .

---

## قصة فتح القسطنطينية

كان فتح القسطنطينية أمنية من أكبر أماني المسلمين منذ نشأة دولتهم. فلقد حاولوا الاستيلاء عليها مراراً قبل عهد السلطان الفاتح. ففي دمشق كان معاوية بن أبي سفيان يعنى النفس بالاستيلاء على مدينة القياصرة، ويرى في ذلك تثبيتاً للخلافة الأموية ومجداً لا يماثل مجده، فأرسل قوة عظيمة إلى البوسفور لم تبال بما قاسته من المرض وقلة الزاد، وأمدّها بابنه يزيد.

كان القتال حول هذه المدينة دائماً عنيفاً، وكانت خسارة المسلمين فيه دائماً كبيرة، وظل معاوية يرسل بحملات سنوية استولت فعلاً على إحدى الجزر القريبة من القسطنطينية لمدة سبع سنوات ثم تركتها حين تولى يزيد الخلافة. أنقذ المدينة تفوق البيزنطيين البحري ثم النار الأخرقية التي عرفت في ذلك الوقت، وفي هذا الحصار وتحت أسوار المدينة العظيمة استشهد أبو أيوب الأنصاري الصحابي المشهور، فأصبح لمدينة قسطنطين مركز خاص في نفوس المسلمين.

ولكن حلم الأمويين بالاستيلاء على هذه المدينة لم ينته بموت معاوية، فما أن استقر لهم الملك حتى عادوا يعدون العدة لتحقيقه،

فكانت المحاولة الثانية في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكان الوليد قبل مماته قد أعد تجهيزات عظيمة برية وبحرية لتحقيق هذا الغرض المنشود . هاجم مسامة بن عبد الملك المدينة براً وبحراً في عهد الأمبراطور ليو الثالث . وكان ذلك الرجل ممتازاً في الحرب والسياسة فاستطاع أن يضم البلغار إلى جانبه ، كما استطاع أن يهزم المساميين براً وبحراً ، ولعبت النار الأخرقية دورها بنجاح في هذه المرة أيضاً .

كانت محاولة مسامة آخر محاولة جديدة قام بها العرب لفتح هذه المدينة ، فلقد اضطرب أمر بني أمية ، وجاءت الدولة العباسية فشغلت عن مدينة القياصرة بسكنى ديار الأكرسة ، ولم تعد تهتم بأمر الأسطول وظلت مدينة القياصرة الشرقيين منيعة باقية إلى أن جاء الأتراك العثمانيون .

فكان أول من حاصرها منهم السلطان بايزيد الأول ولكنه اضطر لرفع الحصار عنها حينما بلغه غزو التتار لبلاده ، ثم حاصرها السلطان مراد الثاني ، ولكن ضعف الأسطول العثماني وعدم وجود المدفعية القوية كانا عاملين على تركها ، ويكفي أن ننظر إلى الاستعدادات العظيمة التي قام بها السلطان محمد الثاني وإلى المشقة التي وجدها في الفتح حتى نعرف إلى أي حد كانت القسطنطينية منيعة قوية

ولم يكن العرب والترك وحدهم هم الذين تآقت نفوسهم لفتح هذه المدينة فلقد حاصرها الأفار والبلغار وفشلوا في الاستيلاء عليها ، ثم في أوائل القرن الثالث عشر غزاها اللاتين والصليبيون وفتحوها عنوة ، ثم عادت الدولة البيزنطية للظهور في القسطنطينية مرة ثانية بعد أن ضعف اللاتين وذهبت ريحهم .

\* \* \*

### المهمرات الحصار

ثم قضى الله أن يستولى الأتراك العثمانيون على هذه المدينة الخالدة في منتصف القرن الخامس عشر .

ففي ٣ فبراير سنة ١٤٥٢ مات السلطان مراد الثاني عدو المسيحية الأكبر الذي كان اسمه يبعث الرعب في الدولة البيزنطية وفي أوروبا ، مات في أدرنه عاصمة دولته الأوربية بعد حياة حافلة بالانتصارات الرائعة على المجرين ومن حالفهم من سكان شبه جزيرة البلقان .

وكان ابنه محمد لا يزال مقيما في مدينة مغنسيا في آسيا الصغرى قد أبعاد عن أمور الحكم والسلطنة بعد ما تولاهما مرتين ، وكان لا يزال حديث السن لم يمض بعد الحادية والعشرين من عمره ، وكان لا يزال

قريب عهد بالزواج من بنت الأمير التركي نورجاتير ، وصلته أخبار وفاة والده فلم يعلمها خوفاً من ثورة الانكشارية ، وأسرع بمغادرة هذه المدينة إلى جاليبولى فوصلها بسرعة كبيرة ، وفي غاليبولى أعلن نبأ وفاة أبيه ، ثم دخل مدينة أدرنه حيث أعلن سلطاناً للأتراك العثمانيين باسم محمد الثانى ، وفي أدرنه استبقى وزراء أبيه خليلاً واسحق بالرغم من حقه الشخصى عليهما ، فكثيراً ما كان هذان الرجلان يخشيان بأسه ويحذرانه ويثنيان أباه عن عزمه فى التخلّى عن السلطنة له ، ولكن مهجداً الثانى أراد الاستعانة بهما فى أمور الحكم لتجار بهما الواسعة ولدرايتهما بشئون الدولة ولتعلق الجنود بهما .

وأما معاصره قسطنطين فقد ولد قبل محمد الثانى بنحو ربع قرن من الزمان ليرث أضخم المسئوليات وأخطارها ، ليرث أمبراطورية قد يبقى منها الاسم والرمز ، وغادرها العز والمنعة ، امبراطورية لم يبق منها إلا مدينة ، ولكنها مدينة تملك سحراً وبهاء وجمالاً وجاذبية لم تكن لأى مدينة أخرى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى .

كانت السنة الأولى التى تولى فيها السلطان محمد الثانى لحظة رهيبية فى حياة الأمبراطورية البيزنطية ، هذه الدولة التى انحلت قواها أمام هجمات الأتراك المتوالية العنيفة ، لقد فقدت هذه الدولة كل ممتلكاتها

تقريباً ، واستطاع الأتراك رغم أنفها ورغم أنف الأمم البلقانية ، نقل عاصمتهم إلى أدرنة التي اتخذوها مقراً لحكمهم ، ومعسكراً عاماً لجنودهم لشن حروبهم وغزواتهم في كل جهات البلقان ، وتمكنوا من الاشراف على المضائق ، على الدردنيل وعلى البوسفور ، وفرضوا الجزية على الدولة البيزنطية البائسة .

لقد كان مجيء السلطان محمد الثاني مثيراً للرعب والفرع في القسطنطينية ، فلقد كان أهلها يعلمون حق العلم أنه أقسم ليستولين على هذه المدينة وأن ذلك سيكون أول مهمة يكرس حياته في سبيل القيام بها . لقد كان الاستيلاء على هذه المدينة الخالدة حلم أحلامه منذ صغره . وكانت عنده القوة العظيمة وأمامه الظروف المواتية للنجاح في تنفيذ مشروعه الخطر .

ما كانت العلاقات العثمانية البيزنطية حينما تولى محمد الثاني علاقات إخلاص وصدقة ، فكان الأتراك العثمانيون موقنين بأن البيزنطيين سينقضون موثيقهم إذا أتت أول فرصة ، فكثيراً ما اتفقت بيزنطة مع أعداء العثمانيين إن لم يكن علانية فسرّاً ، وأباطرة بيزنطة ينتهزون كل الظروف للإيقاع بين العثمانيين وإثارة الانقسام بينهم ، فهم دائماً يعضدون الأمراء الثائرين المطالبين بالعرش العثماني . ومحمد الثاني يذكر

جيداً موقف بيزنطة حين أغار التتار . وقسطنطين لم يحسن التصرف حين تولى السلطان الجديد فلم يعمل على كسب ثقته بل لقد ظن فيه الضعف ، واعتقد فيه التردد والخوف ، فتقدم إليه بمطالب أثارت غضبه وحفيظته ، فلقد أيقن أن قسطنطين يريد الانتقاص من كرامته وأنه يهدد ملكه ، لقد طلب قسطنطين زيادة المرتب الذي يدفعه السلطان للدولة البيزنطية نظير تكفلها بأحد أبناء سليمان بن بايزيد الأول واسمه أرخان ، ولمح الامبراطور البيزنطى بأنه إذا لم يجب طلبه سيطلق سراح ذلك الأمير ليطلب بالعرش العثماني ويثير المشاكل للسلطان الجديد .

إذن فالمسألة مسألة حياة أو موت في نظر السلطان محمد الثاني ، فكيف ينسى لقسطنطين ذلك الموقف ، وخاصة وأنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بإخماد ثورة في آسيا الصغرى ، ولكنه رد بأدب ، وحذر البيزنطيين الضعاف عواقب سياستهم وسوء تصرفاتهم وبين لهم أن الفرق شاسع بين خلق السلطان الجديد وخلق أبيه مراد ، فراد يمتاز بالهدوء ، ولكن السلطان الجديد لا يحتمل الإهانة ولا يصبر على ضيم . وكان السلطان محمد الثاني قد وطد العزم على فتح العاصمة الأخرينية ولذا رأى توطيد دعائم ملكه قبل القيام بذلك المشروع الخطير .

رأى عهد أن البيزنطيين ليس لهم عهد ولا يمين ، فلقد كان يذكر لهم المواقف السيئة في عهد أبيه ، ألم تؤيد القسطنطينية فعلا مطالباً بالعرش العثماني ؟ ألم يمدده بالسفن وتسهل له العبور ؟ ألم تعمل بيزنطة على إثارة القلاقل ضده في آسيا الصغرى ؟ إذن ففتح القسطنطينية والقضاء على هذه الدولة أمر لا بد منه إذا أراد العثمانيون ثبات ملكهم وحرصوا على مستقبلهم .

وكانت حال المدينة العامة سيئة للغاية ، فهي وضواحيها كل ما اشتملت عليه الامبراطورية الأخرقية ، وليس لديها من الجنود المدربين إلا العدد القليل ، وأما من السفن فبضع لا تغني قليلاً في وقت الحزن ولا ترد جليلاً من الخطوب .

وكثرت البعثات السياسية التي أرسلتها القسطنطينية إلى أوروبا طالبة الفوث والنجدة ، كما يقول مؤلف تاريخ الصليبيين في العصور الوسطى المتأخرة <sup>(١)</sup> ، لكن كانت هناك مصاعب عظيمة في سبيل نجاح هذه البعثات ، وأهم هذه المصاعب اختلاف الكنيستين الشرقية والغربية ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، والنزاع بين بيزنطة ورومه . ولقد بذلت مساع دبلوماسية هائلة في سبيل التوفيق بين الشرق

---

(١) الدكتور عزيز سوريال .

البيزنطى الأرثوذكسى والغرب الرومانى السكاثوليكي . ولكن البابوات لم يستطيعوا قبول ذلك التوفيق إلا إذا اعترفت رسمياً الامبراطورية البيزنطية ورجال الدين البيزنطيون بتوحيد الكنيستين على حساب بيزنطة طبعاً . وعلى أساس ذلك الشرط وحده تستطيع البابوية أن تعمل على إثارة العالم المسيحى الغربى لمساعدة بيزنطة فى كربها ضد المسلمين .

وربما لم يكن لدى الامبراطور البيزنطى قسطنطين مانع من قبول هذا الشرط المهيمن ، ولكنه كان يعلم حق العلم أن الأ كثرية من سكان مدينة القسطنطينية ومعظم قساوستها معارضون لهذه الفكرة عاقدوا العزم على رفضها ومحاربتها .

ولم تكن هذه المحاولة أول محاولة من نوعها ، ففي المدة الواقعة بين سنتى ١٠٥٤ و ١٤٥٣ كانت هناك ثلاثون محاولة لاتحاد الكنيستين وكان هذا الاتحاد غاية ما يصبو إليه أباطرة الغرب والبابوات — فلقد كان هذا التوحيد فى نظرهم أنجح علاج للأمراض العضال التى تعانى منها المسيحية ولضعفها المتزايد . فإذا تم ذلك التوحيد بتنازل الشرق عن كنيسته وقبول سيطرة رومه ، إذن تعود للمسيحية قوتها الأولى ووحدها ، وإذن تستطيع الوقوف أمام قوات الإسلام التى يزداد خطرها يوماً بعد يوم .

قامت محاولات ، ولكن قامت في سبيلها صعوبات ، فهناك مواضع للخلاف كبير على الكنيسة الشرقية قبولها ، واختلطت المصالح السياسية بالمصالح الدينية إلى حد كبير ، بحيث لم يكن من السهل الفصل بين المصلحتين أو تغليب إحداها على الأخرى .

ولم يستطع أحد من الفريقين التخفيف من تعصبه ، فعامل كل واحد الآخر كملحد وخارج على الدين المسيحي ، ووصل الأمر إلى درجة أن الغرب الكاثوليكي لم يكن يهدد بحروبه الصليبية الإسلام وحده ، بل كان يهدد الأرثوذكسية ذاتها والقسطنطينية بحرب صليبية لا تبقى ولا تذر . ولم يكتف الغرب بحملته الصليبية الرابعة على هذه المدينة ، بل كان يفكر متأثراً بالبابوية في إعداد حملة صليبية أخرى تقضى هذه المرة القضاء المبرم على الأرثوذكسية .

ولكن تهديد الأتراك المستمر للقسطنطينية جعل الأباطرة البيزنطيين ينزلون مرغمين عن كبرياتهم ، ويطلبون النجدة والعون أياً كان الثمن ، فأعلنوا رغبتهم في توحيد الكنيستين وقبول سيطرة رومه ، وحاولوا تبرير تحالفهم في بعض الأوقات مع الأتراك بأنهم مستعدون للقيام عليهم ومحاربتهم متى نفذ الغرب وعده وفي الوقت المناسب الموعود .

وإزاء ذلك جاهد البابوات في سبيل إثارة العالم المسيحي على المسلمين والاسراع بنجدة بيزنطة ، ولكن هذه الجهود كانت فاشلة في كثير من الأحيان حتى مع الجمهوريات الإيطالية ، البندقية وجنوة ، وحتى مع فرسان رودس . ذهبت معظم هذه الجهود هباءً منثورا .

وكان أباطرة القسطنطينية يسعون جادين إلى الاتحاد مع الغرب كلما هددهم الخطر التركي ، فإذا خف ذلك انخطر أهلوا الغرب كلية ، فلقد كانوا يرون في ذلك الاتحاد سلاحاً ضد الأتراك ، فكانوا معنيين قبل كل شيء بالمساعدة المالية والحربية التي يستطيع الغرب أن يقدمها لهم . ولكن أهل المدينة أنفسهم وقساوستها رفضوا اتحاد الكنيستين ، وكانوا مستعدين للتضحية باستقلالهم السياسي في سبيل استقلالهم الديني . فلقد كانت ذكرياتهم عن سيطرة اللاتين ذكريات ساخطة ممعنة في الأيلام ، وفرض الوحدة بالقوة في سنة ١٢٠٤ أثار حقد الأغرريق الهائل ، ورغبتهم في الانتقام .

وعلى أي حال لم تنجح دعاية البابوية إلا في تكوين حملة صليبية واحدة كانت نهايتها المحزنة في نيكوبوليس ، ولم يعد من السهل بعد ذلك تكوين حملات صليبية أخرى لنجدة القسطنطينية .

ولكن في هذه المرة كان الخطر عظيماً على القسطنطينية إلى درجة

تهدد حياتها ، وكان لزاماً على البابوية أن تقدم بعض المساعدة ، لاسيما وأن قسطنطين كان مستعداً للاعتراف رسمياً بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية توحيداً نهائياً . فوعد البابا بإرسال أسطول وأرسل فعلاً الكردينال ايزيدور مندوباً عنه ليقبل خضوع الكنيسة الشرقية الرسمي

\*\*\*

بدأ الكردينال ايزيدور رحلته إلى القسطنطينية الخائفة في أواخر سنة ١٤٥٢ ، ووصلها في ديسمبر من هذه السنة ، وأقيم حفل عظيم في كنيسة سانت صوفيا حضره الامبراطور البيزنطى والبطريرك جريجورى يساعده ثلاثمائة قسيس للاحتفال بتوحيد الكنيستين ووحدة المسيحية .

وبجانب ذلك الفريق الراضى عن التوحيد أو المتظاهر بالرضا ، وجدت معارضة قوية غاضبة نائرة على رأسها جناديوس ، هى فى ريب مما يدعو إليه الفريق الأول ، وهى تنذر بالويل والثبور إذا تم ذلك الاتحاد . وكثرت النبؤات عن العذاب الذى سيلحق بيزنطة إذا تم اتباع الملة الغربية ، وهى تقول بسقوط الامبراطورية وبنقض الله إذا سيطرت رومه على مدينة قسطنطين ، وناذى أتباع جناديوس بالموت والدمار لمن يعتنق الكاثوليكية ، وسحقاً لمن يقبل الاتحاد معها ، ودعوا

العذراء مبتهلين أن تنجى المدينة العظيمة من الخطر التركي الداهم ،  
كما أنجتها من قبل من الأكرسة الفرس ، والخلفاء العرب .  
ما كان جم غفير من أهل القسطنطينية يعتقد مخلصاً في الملة  
الجديدة ، وهي الكثلثة الغربية ، بل هم منها في شك صريب ، وحتى  
الامبراطور قسطنطين نفسه الذي ثرى تربية إنسانية بمعنى الكلمة ،  
وتثقف ثقافة حقيقية كان عنده نفس الشعور ، إلا أنه قبل ذلك الاتحاد  
لأسباب سياسية قبل كل شيء على أمل مساعدة الغرب الكاثوليكي  
في محنته الوشيكة الوقوع .

وأما السلطان محمد الثاني خصمه العنيد فلقد استعد للحرب بكل  
ما لديه من قوة ومن عتاد الخيل وأدوات الحصار ، ولكن الكثيرين  
من أهل القسطنطينية رأوا أن امبراطورهم قسطنطين قد ارتكب شيئاً  
إدّاً تخرله الجبال هدأ بقبوله اتحاد الكنيسيتين ، ورأوا في ذلك محنة  
الحزن ومهزلة الدهر ، وخطوة غير عملية ، وخطوة خاسرة . بل لقد قال  
أحدهم والخطر محقق بمدينتهم أنه يفضل أن يرى في مدينة قسطنطين  
الأكبر عمامة السلطان عن أن يرى قبعة البابا . وكان يشارك هذا  
الرأى الكثيرون من أهل المدينة الذين كانوا يمقتون اللاتين مقتاً شديداً .  
وفي ذلك الوقت العصيب كان الشغل الشاغل للسلطان محمد الثاني

هو الاستعداد لفتح أم المدن وملكيتها ، فهو يفكر ليل نهار في فتح هذه المدينة العظيمة ، كما يروى هامر<sup>(١)</sup> عن أحد خصوم السلطان المعاصرين . فهو يقضى النهار وزلفاً من الليل قلقاً مضطرباً مفكراً في كيفية الاستيلاء عليها ، وهو لا تكاد تفارقه خرائط المدينة التي جعل دراستها عمله اليومي ، وهو يدرس مواضع أسوارها ومواطن الضعف فيها ، وهو يضع الخطط تلو الخطط للتغلب على قوة دفاعها ، وهو يدرس التفاصيل الدقيقة بصبر واهتمام لا مزيد عليهما .

لقد عرض عليه الامبراطور البيزنطى السلام ، ولكن محمداً ما كان يعتقد في سلام البيزنطيين ، ولا يعطى أهمية كبيرة لكلمة زعماء المسيحية ، فهم في نظره لا يربطهم مع المسلمين عهد ولا ذمام ، ألم يصرح أحد الكرادلة في عهد أبيه السلطان مراد الثانى بأن المسيحيين فى حل من نقض معاهداتهم مع المسلمين ، وقال إن نقض المعاهدات مع المسلمين ليس مخالفاً للدين المسيحى؟! فكيف يستطيع السلطان أن يصدق إذن كلمتهم أو أن يرتبط بوعد من وعودهم ؟

ثم مسألة ثانية ، لقد وقعت الدولة البيزنطية موقفاً غير ودى فى محنة الدولة العثمانية حين غزا التتار بقيادة تيمورلنك آسيا الصغرى ، أليس

---

(١) فى مؤلفه ، تاريخ الدولة العثمانية .

وجود الدولة البيزنطية حجر عثرة في سبيل إشراف العثمانيين التام على البلقان وقاعدة ضد العثمانيين في وسط بلادهم ؟ وجودها وحده عامل على تشجيع الغرب على محاولة طرد العثمانيين من أوروبا .

لقد عرف محمد الثاني أن مهمته حقيقة خطيرة وخطرة ، ولكنها واجبة النفاذ ، فعمل على تمهيد الطريق لتنفيذ مهمة حياته وأكبر آماله . فعمل أولاً على استقرار الأمور في أراضي الدولة العثمانية . فأقر من عاونوا أباه في الحكم كما ذكرنا ، وتخلص ممن ظن أنهم سيوجدون له مشاكل عاجلة أو آجلة أو سيكونون مصدر ثورات عليه في المستقبل ، فهو يؤمن بضرورة استقرار الملك قبل كل شيء مهما بذل في سبيل ذلك من تضحيات ومهما أراق في سبيل ذلك من دماء . فماذا يهم في نظره دماء جملة أشخاص في سبيل القيام بمهمته العظيمة ، وهي مهمة ترفع من شأنه ، وتخلد ذكره ، وترقى بمركز الإسلام .

ولم يغفل السلطان محمد الثاني الوسائل السياسية ، فالأمور الدولية تحل بوسائل السلم كما تحل بوسائل الحرب ، وكل منهما له وقته المناسب وظروفه الخاصة ، ولا بد من تأمين حدوده وإسكات أعدائه . ولذا أخضع الثورات في ولاية قرمان ، وعمل على استصلاح النفوس في آسيا الصغرى ، هذا في ممتلكاته الآسيوية . أما في أوروبا فلقد عقد صلحاً

(٤)

مع أكبر عدو وأخطر منافس للعثمانيين في البلقان ، وهو هونيادي  
المجرى ، صلحاً يضمن به السلام على حدوده لمدة ثلاث سنوات .  
وهو وإن لم يكن يثق كثيراً في مثل هذه المعاهدات إلا أنه يعرف أن  
موقعة ورنه ثم موقعة قوصوه في عهد أبيه الغازي قد أعطتا لهريادي  
المجرى درساً قاسياً لن ينساه ، فلقد أضعفتا قوة المجر إلى درجة لا تجعلها  
تفكر جدياً في الخنث بالعهد أو النكث بالاتفاق أو الانتقام .

وبين السلطان محمد الثاني في نفس الوقت أنه لا ينوى التدر  
بالامبراطور البيزنطى ، وهدأ من روع صقالة البلقان الذين كانوا قد  
ذاقوا من قبل سيوف العثمانيين .

وإذا كان السلطان محمد يستخدم الوسائل الدبلوماسية لخدمة  
أغراضه ، فما كان الامبراطور البيزنطى بمنفلها ، فقسطنطين شخصية  
عظيمة ، جم النشاط ، عظيم الصبر ، بطل من أبطال العصر ، ولكن  
مولده لم يكن سعيداً وطالعه لم يكن ميموناً ، وصفتته بإرث بيزنطة  
ومصائبها وآلامها كانت صفة خاسرة . ضحى قسطنطين أولاً  
بالأرثوذكسية حتى يقنع الغرب بمساعدته في أزمته ، وحاول التزوج  
إلى الغرب حتى يوثق أواصره به ، ولم يكن هذا الزواج أول زواج أو  
ثانيه لذلك الامبراطور الشجاع التعيس الحظ .

وفي أثناء ذلك كان السلطان محمد الثاني قد ثبت قواعد ملكه في آسيا وفي أوروبا وكان عليه أن ينفذ وصية والده ، وأن يحقق رسالته بفتح المدينة الخالدة . فحوّل مدينة أدرنة عاصمة العثمانيين في أوروبا إلى مصنع هائل للأسلحة ، وجعلها مركزاً لجيوشه المتجمعة من كل أنحاء دولته ، وبنى دار السعادة الجديدة لسببك المدافع الكبار وصنع الأسلحة واهتم بجعل عاصمته مركزاً لتكوين جنوده . ثم كان عليه أن ينشئ مركزاً جديداً من مراكز قوته في أوروبا ، حتى يستطيع الإشراف التام على البوسفور من ناحية الشاطئ الأوربي .

وكان السلطان بايزيد الأول الفازي قد شيد على ساحل البوسفور الأسيوي حصناً منيعاً هو أناضولي حصار لكي يشرف على مدخل البحر الأسود ، فالحصن الذي شيده السلطان محمد الثاني ، وهو روميليا حصار ، بنى لكي يواجه ذلك المعقل بحيث يستطيع الأتراك من هذين المعقلين أن يشرفوا إشرافاً تاماً على البوسفور ، وعلى مدخل البحر الأسود . وبذا يصيرون مسيطرين سيطرة تامة على الطرق الشمالية إلى القسطنطينية .

وهذا المعقل الجديد سيكون مركزاً مهماً من مراكز العمليات الحربية في أوروبا ، ومحطة كبيرة للمعدات والذخائر ، وشحنه السلطان

محمد بالآلات النارية والمدافع والمراحي الرعدية والمكاحل ( وهى مدافع يقول عنها صاحب صبح الأعشى أنه يرمى عنها بالنفط . . . و بعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر . و بعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل ) .  
وبهذا المعقل يستطيع السلطان بسلام تام وأمان نقل رجاله ونقل المؤن الحربية والعتاد الحربى بسهولة فى ذلك الحيز من الماء الذى يقع بين شاطئى البوسفور والذى يبلغ نصف الميل .

وكانت الدولة البيزنطية عاجزة إلى حد أنها كانت ترى تنفيذ مثل ذلك المشروع الضخم ، ولكنها ما كانت مستطاعة منع السلطان من إنجازها .

لم يصبح السلطان محمد الثانى بذلك الحصن الحصين مسيطراً على البوسفور فحسب ، بل يصبح مسيطراً على بحر مرمره أيضاً ، ولذا كان يؤمل أن يكون فى مقدوره غلق البوسفور ، والإشراف على الطرق البحرية المؤدية إلى المدينة من ناحية الجنوب ومن ناحية الشمال ، وعزلها تماماً بجيوشه البرية ، فلا تستطيع استقبال أى مدد أو أية معونة من أى ناحية . ومن الغريب أن ضعف الدولة من الناحية البرية والبحرية وصل إلى حد أن حاول الامبراطور البيزنطى التقرب إلى السلطان زلفى

بإمداد عماله بالمواد الغذائية حتى يسهل إتمام المشروع بسرعة !  
واستغرق إتمام ذلك المشروع الكبير بضع شهور . فدعر أهل  
القسطنطينية وأحسوا بالخطر الداهم يهدد حياتهم ومصيرهم ، وشعروا  
بأن نهاية الدولة آتفة لا محالة . وتكرر احتجاج الامبراطور على ذلك  
العمل وأشار إلى أن ذلك العمل ليس ودياً بأى حال إزاء دولة تربطها  
بالدولة العثمانية رابطة الجيرة ، ولكن ذلك الاحتجاج لم يكن بذي  
جدوى إذ لم يستمع إليه السلطان ، بل قابله بالتهديد والوعيد ، فهو  
يعلم أن الجيش الامبراطورى البيزنطى لا يستطيع رد العثمانيين فليست  
له قوة خارج أسوار المدينة العظيمة ، ولقد ذكر السلطان قسطنطين  
كما يروى هامر بأن كل الأراضى الواقعة خارج أسوار القسطنطينية  
ملك له يتصرف فيها كيفما يشاء ، فهو له الحق فى كلا جانبي البوسفور  
الشرقى لأنه يقطنه العثمانيون والجانب الأوربى لأن البيزنطيين لا يحسنون  
الدفاع عنه ، وأنه مضطر اضطراراً إلى بناء ذلك الحصن ، وبين له  
كيف حاولت الدولة البيزنطية أن تمنع العثمانيين من العبور حين قامت  
الحرب بينهم وبين الجبر فى عهد أبيه السلطان مراد الثانى .

ولم يستطع قسطنطين دفعاً للخطر الجاور له ، ولم يستطع منع العمال  
من السير فى عملهم بهمة ونشاط ، ولم يستطع منع الجنود العثمانيين من

اكتساح كل القرى والضياع المجاورة للقسطنطينية ومن هدم المباني  
والمساكن لإتمام بناء حصنهم على ضفة البوسفور .

ولقد أخذ السلطان عهد الثاني على عاتقه الإشراف على إنجاز  
ذلك الحصن ، وأعلن لرعايا سلطنته في آسيا وأوربا أن يمدوه بالصناع  
والعمال للإسراع في إتمام مشروعه الكبير . فسار العمل بدقة وسرعة  
غريبتين ، ولم يترك السلطان بجالا لأى شىء شأنه في كل مشاريعه  
الحربية .

اختار السلطان المكان بنفسه ، وأظهر باشاواته وكبار موظفيه  
ولاءهم وإخلاصهم بالاشتراك مع العمال في نقل الأحجار والملاط  
والأدوات اللازمة للبناء .

وتقول بعض الروايات أن خمسة عشر ألف عامل قاموا بإنجاز  
ذلك المشروع وتروى الأخرى بأنهم كانوا ستة آلاف فقط . وربما كان  
الرأى الثانى هو الأصح . ولقد كلف السلطان عهد قواده بأن يشرف  
كل منهم على جزء خصصه له ، وأشرف بنفسه هو على الجميع .

وبذا لم تعد تصل إلى القسطنطينية الفلال التى كانت تأتىها عن  
طريق البحر الأسود . ولقد تمَّ إنجاز المشروع فى أغسطس سنة ١٤٥٢  
ولم يستطع الامبراطور البيزنطى غير إمداد العمال الأتراك بالأغذية

حتى يسترضى قلب السلطان الغاضب الثائر . ثم حاول بعد ذلك أن يلجأ إلى مهاجمة هؤلاء العمال وطردهم وتدمير ما أنشأوه ، ولكن قوات السلطان كانت تقضى على هذه المحاولات بالقوة . ولا تزال آثار التحصينات العثمانية باقية إلى الوقت الحاضر كظهر من مظاهر النشاط الهائل الذى عرفه التاريخ عن ذلك السلطان القاهر .

وكانت النتيجة الحتمية لبناء ذلك الحصن ولقاومة البيزنطيين أن أعلن السلطان الحرب رسمياً على الامبراطور البيزنطى على أساس اعتداء البيزنطى على جنوده وعماله .

لقد عمل إنشاء ذلك الحصن على إدخال الذعر والخوف فى قلوب البيزنطيين سكان المدينة وبقية رعايا الدولة . فلقد ترك السلطان فى ذلك الحصن حامية قوية من جنود مختارين بقيادة فيروز أغا ، وأمره بإيقاف جميع السفن التى تمر ببوغاز البوسفور ، وأن يفرض عليها أتاوة ، هى ضريبة المرور ، وجهاز الحصن بالمدافع القوية التى تجعل إرادته وأوامره محترمة .

وأخذت حامية ذلك الحصن تمتدى بانتظام على الجهات المجاورة ، وفهم الامبراطور البيزنطى أخيراً أن محاولته المحافظة على السلام بأى ثمن لن تفيده شيئاً ، فلا شئ يرضى العثمانيين غير القضاء على ملكه

وغير الاستيلاء على مدينته ، ولذا عقد العزم على الموت في عاصمته هو و رعاياه فأغلق أبواب القسطنطينية وبعث إلى السلطان محمد الثاني بما عزم عليه ، ففي ٦ أبريل كتب قسطنطين رسالة للسلطان العثماني يقول فيها :

« لما كان من الجلى أنك تريد الحرب أكثر من السلام ، ولما كنت غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصى واستعدادى لأن أكون تابعاً لك ، لذا ، فالأمر لله ، وسأحول وجهى إلى الله ، فإذا كانت إرادته تقضى بأن تصبح هذه المدينة مدينتك ، فلا مرداً لقضاء الله وقدره ، وأما إذا ألهمك الرغبة فى السلام ، فساكون سعيداً ما بقيت ، ومع ذلك فأنى أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معى ، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمي ... »

هذه كانت روح مدينة القسطنطينية أو الفريق الأكبر فيها حين قررت عدم الخضوع ، وصممت على الدفاع إلى النهاية . أقفل الامبراطور أبواب المدينة وقبض على كل الأتراك الموجودين فى داخلها ، فأرسل إليه السلطان محمد الثانى بإعلان الحرب ، ويروى خصوم السلطان المسيحيون المعاصرون له أن السلطان أمر بقطع رؤوس مبعوثى الامبراطور البيزنطى ، وهذه الرواية تحتاج إلى دليل ، وظهر السلطان

بعد ذلك بجيش يبلغ خمسين ألفاً بجوار الأسوار ، ثم رجع إلى أدرنه فلم يقيم إلا غريق بأية حركة معادية . كان غرض السلطان من هذه الزيارة القصيرة التي دامت ثلاثة أيام الاستطلاع ، وبحث موقع القسطنطينية ، ودراسة قوة الأسوار والأبراج .

رجع السلطان إلى أدرنه حيث أتم استعداداته ، وعمل على منع أخوى الامبراطور في شبه الجزيرة الأغر يقية من مده بالمساعدة وذلك بأن أرسل جيشاً قوياً إلى الموره بقيادة طورخان فاكتسح بلاد الموره من أقصاها إلى أقصاها ، وتمكن من وقف أى إمدادات مقصدها المدينة المحاصرة .

وكان لبناء ذلك الحصن على ضفة البسفور أثر كبير في حركة المرور بالبوسفور ، فلما حاولت بعض السفن الآتية من البحر الأسود ومقصدها القسطنطينية ، لما حاولت هذه السفن الحملة بمواد التموين المرور ولم تأبه لأوامر الحصون العثمانية دمر بعضها وقتل الكثير من رجالها . وبذلك تبط العثمانيون من عزم أصحاب السفن التجارية ، وشالوا حركة النقل .

ولقد جمع السلطان محمد الثاني في قصره في أدرنه قواد جيشه ، ورسم لهم خطته ، وذكرهم بمجد أسلافه وبانتصاراتهم الباهرة ، وبين لهم أن قوة الامبراطورية البيزنطية قد ضعفت واضمحلت ، وأنه لم يبق أمامهم

سوى عقبه واحدة في سبيل فناء هذه الامبراطورية ، فيجب الاستيلاء على مدينة القسطنطينية بأى ثمن ، وأن الظروف السياسية والحربية مواتية ، ولدى الأتراك القوة الكافية لتحطيم أى مقاومة ، وأنه يجب الإسراع بإنجاز هذه المهمة قبل أن تستعد أوروبا للقيام بنجدة هذه المدينة ، وقبل أن تصلها الإمدادات والمؤن التى قد تطيل أمد الحصار ولذا لا بد من بدأ هذه الحرب والسير فيها إلى أن ينزل الله نصره .

ونفذ السلطان محمد الثانى مشروعه بقوة وعزم منقطعى النظر ، كان قادراً بطلاً إذا جراءة ، وشكياً منظرها حديدي الإرادة ، وتم استيلاؤه على كل الحصون التى لا زالت باقية فى تراقيا حتى يحمى مؤخرة جيشه ، وكذلك احتل كل المدن الواقعة على البحر الأسود وبحر مرمرة ، واكتسحت جنوده ضواحي العاصمة ، فبلغ الذعر فيها منتهاه ، وعم القلق ، وتناقل الناس الأقاصيص والخرافات والأساطير ، وكثرت التنبؤات عن مصير المدينة المنكودة الحظ ، وتزايدت النذر باندثار أعظم مدينة مسيحية ، وأحس المسيحيون بهزات أرضية عنيفة ، وفى السماء كثر الرعد والبرق ، وهطلت الأمطار المتدفقة ، وخيل للقوم أن نجوماً جديدة فى السماء قد ظهرت ، لقد عمت المستريا فى الواقع عقول سكان المدينة المحاصرة ، فكثرت أقاويلهم ، وتبلبلت ألسنتهم

وهلعت نفوسهم ، و بلغت القلوب الخناجر وظنوا بالله الظنون .  
ولكنه في نفس ذلك الوقت المصيب كان الامبراطور الشجاع  
قسطنطين وزعرة من الشجعان من أهل المدينة قد أخذوا في تحصين  
المدينة ، وإعداد وسائل الدفاع بكل ما استطاعوا من قوة حسبما سمحت  
لهم الظروف ، وكان أول واجب هو إصلاح الأسوار المتهدمة التي أبلاها  
الدهر ، وعفت أمام إغارات الغازين المتكررة . واستعملت لذلك أحجار  
القبور وكثير من الآثار القديمة والمنازل ، وجمعت الذخائر والأسلحة  
بكل سرعة ، وكنا الغلال والزيت ، وجمعت الأموال التي يمكن  
الحصول عليها ، وبعثت البعثات الصارخة إلى أوروبا ، تطلب القوات  
والنجدة وتبكي حظ المسيحية في كل مكان فيه للمسيحية سلطان وقوة ،  
واستمر ذلك طوال ذلك الشتاء الكئيب المكفهر ، وكان معظم سكان  
المدينة قد فقد الأمل من وصول أي نجدة ، وإن كان المسيحيون في  
أوروبا قد ظلت لديهم بعض الآمال في حدوث معجزة تنقذ حصن  
المسيحية الشرقي .

وثابر السلطان على تجهيز استعداداته للهجوم وتنظيم وسائله ، فجمع  
جيشاً عظيماً ربما بلغ ربع المليون أو أكثر كما يرى هامر ، وأنشأ  
أسطولا ضخماً ، وشحن حصونه بالأسلحة والذخيرة للقضاء على هذه

المدينة البائسة . ومن شهر فبراير سنة ١٤٥٣ بدأ بإرسال مدافعه وأخذ في الاسراع بإنشاء السفن . وقامت بعض السفن الأخرى بقتية بالهجوم على الشواطئ التركية الإسلامية ، فأخذت من قدرت عليه ، وقتلت من قتلت ، وخربت ما خربت ، وباعت في الأسواق من باعت ، فلما علم السلطان بذلك استشاط غضباً ، وأقسم لينتقم من سكان المدينة شر انتقام .

وكان الامبراطور قد علم بهذه الاستعدادات العظيمة ، كما يقال ، عن طريق خليل باشا وزير السلطان ، الذي يرى بعض المعاصرين أنه لم يكن مخلصاً للسلطان بدليل اتصاله بقسطنطين وإخباره بما يعتزم عليه السلطان محمد الثاني من إيقاد نار الحرب والاستيلاء على المدينة . واكنا لا ندرى إذا كان خليل باشا قد كشف للامبراطور البيزنطى عن أسرار مولاه أو عن خططه الحربية حتى تستطيع اتهامه بالخيانة . وعلى أى حال لقد ظل السلطان يثق به ثقة كبيرة طوال وقت الحصار وان لم يأخذ برأيه في فك الحصار عن المدينة . ولكن حين تجمعت له الأدلة عن اتصاله بالأعداء وذلك بعد سقوط القسطنطينية أمر بضرب عنقه .

واقدم استمرت استعدادات كل من الأتراك والبيزنطيين طول

وقت الشتاء ، وجاءت إلى القسطنطينية بعض الإمدادات الضعيفة ، مثل سفينتين بندقيتين استطاعتا بصعوبة أن تنفذا من البوسفور وتلقيا عراسيهما في القرن الذهبي .

وجاء الكردينال ايزيدور مبعوث البابا بمائتي مقاتل لنجدة المدينة ولائتمام توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وتبعته ثمان سفن من كريت تحمل النبيذ للمحاصرين ، وكثرت اجتماعات المجالس واللاجان في القسطنطينية وزاد طلب النجدة ، وبعثت البعثات إلى المجر تطلب العون من بطلها هو ينادى بالأيترك إخوانه البيزنطيين يستقون صرعى في أيدي الأتراك العثمانيين . ولكن هذه الاستغاثات لم تجد استجابة ولم تلق غير التأييد اللفظي

ثم جاء جون جوستينياني الجنوى على سفينة محملة بالمؤن والذخائر ، ومعها أخرى وخمسمائة من رجاله فكانت جملة من معه سبعائة . ولقد استقبله الامبراطور استقبالا عظيما ، وعينه قائداً لقوات البرية .

وسيظهر ذلك المغامر الكونديتيري الحقيقي مهارته وشجاعة ممتازين ، كما سيبدى نشاطاً بالغاً الحد ، ولقد أعجب السلطان بشجاعته كما يقول هامر وحاول الاتصال به . لقد قدم متطوعاً للدفاع عن حصن المسيحية الشرقى ، وكان هو ورجاله نخبة المدافعين عن المدينة الخالدة وخيرتهم .

وأخذ جون جوستينياني على عاتقه من وقت تعيينه أمر تنظيم الدفاع عن القسطنطينية . فنظم وضع مدافعه الصغيرة على الأسوار في نقط معينة ، وقسم المدافعين عن القسطنطينية حسب شعوبهم وأجناسهم وخصص لكل واجباته ، وقام بمهمة ليست بالبسيطة وهي تدريب هؤلاء الرهبان والمدنيين الذين يجاؤون فن الحرب كلية ، وليس لديهم من وسائلها إلا الحماس لها والرغبة في النضال ضد المسلمين لإيقاد مدينتهم الجميلة ، والتضحية بأرواحهم فداءاً لها .

وعملت الخنادق الموجودة في الناحية الشرقية ، وكان الامبراطور يشجع هؤلاء المجندين ، ويقوى من ثقتهم بأنفسهم ويبين لهم أن العذراء لن تترك مدينة المسيحية الخالدة لتسقط في أيدي المسلمين الظالمين .

وخصص الامبراطور جون جوستينياني الجنوى وأتباعه مهمة الدفاع عن النقط الخطرة والأبواب المهمة . وأجمت كافة الجميع أغريق وبنادقة وجنويين وكتلان كاثوليك وأرثوذكس على ضرورة الدفاع عن مدينتهم إلى آخر رفق من حياتهم ، وإيقاد أكبر حصن في أوروبا من أن يقع في أيدي الأسيويين الغازين .

وقرر الامبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن الفاتحة ، تبدأ من طرف المدينة الشمالى الشرقى ، وتنتهى عند ضاحية

غلطاه ، وهي مدينة جنوبية مستقلة ، ويترك لهُؤلاء الجنوبيين أمر حمايتها عند طرفها الشمالي . وهذه السلسلة هي التي وقفت أمام الأسطول أو الأرماد التركي وعملت على حماية السفن التي تجمعت وراءها ، لقد لعبت هذه السلسلة دوراً هاماً في الدفاع عن المدينة المحصورة .

وفي نهاية شهر مارس كانت استعدادات السلطان محمد الثاني لفتح القسطنطينية قد تمت ، وكان قد دمر كل القرى المجاورة لها ، فلم تعد المدينة الكبيرة تستطيع الاتصال بالبلاد المجاورة لها ، أو تضييق منها ، وكان عليها أن تعتمد الاعتماد كله على المؤن والدخائر الموجودة بداخلها ، وأن تنتظر ما قد يستطيع أن يصل إليها من إمدادات من الخارج ، وكان وصول الإمدادات صعباً ، إن لم يكن مستحيلاً كما سنرى .

تمت استعدادات السلطان محمد الثاني للحصار ، ففي أدرنه عاصمة الأوربية ومعسكر الأتراك العظيم تجمعت الجنود العثمانية الآسيوية والأوربية الفرسان والمشاة ، النظامية وغير النظامية ، وبين هذه الجنود الغير النظامية والباشبوزق عدد كبير من المسيحيين الذين لا هم لهم غير القتال والقتل والغنيمة والسلب والنهب ، وهم لا يخضعون في سلوكهم لقانون ولا نظام ولا عرف ولا دين ولا إنسانية وإنما يتبعون غرائزهم البهيمية قبل كل شيء والأوامر التي يصدرها قائدهم إليهم .

كان حماس الجيش العثماني للقتال عظيماً ، وكان عدده كبيراً ،  
ويعتقد رجاله أنهم يؤدون مهمة سامية في الحياة ، ويقومون بتنفيذ  
مشروع مقدس ، ويعملون على رضا الرب ، ويتغنون المثوبة من الله ،  
وينتظرون النصر ، وينتقمون للمسلمين . كان بين هذا الجيش عدد  
كبير من الملات ( القضاة ) والمشايخ والعلماء والدرأويش يقوون روح  
الجهاد والحماس في الجنود ، وكان السلطان قد استصحبهم على عمد  
لا لاستغلالهم فقط في سبيل إبراز القوى المعنوية للجنود ، ولكن  
تبركاً بهم ، وتيمناً بصحبتهم واحتراماً لهم وإكباراً .

كانت الحركة دائمة والنشاط عظيماً في كل من مدينتي أدرنه  
والقسطنطينية ، لم تكن تغمض لمحمد الثاني أو لقسطنطين عين ،  
لقد كانت استعدادات الأتراك الهائلة التي لم تخف على البيزنطيين  
عاملاً على نشر الذعر والخوف في المدينة المسيحية ، وخاصة ما تناقلته  
الأخبار عن قوة مدفعية السلطان العثماني ومدى تدميرها الغنيف .  
كان الأتراك أول من استعمل الأسلحة الحديثة ، وأحسن استخدامها  
ولم يكن أحد من السلاطين يهتم بالمدفعية مثلاً كان يهتم بها السلطان  
محمد الثاني . لقد علم سكان مدينة القسطنطينية أن الأتراك يحاولون  
صنع مدفع عظيم لم يسبق له مثيل ، وأن السلطان يستخدم لذلك صانعاً

بحريا اسمه أربان ، وكان ذلك الرجل قد عرض خدماته قبلا على  
الإمبراطور البيزنطي ، فلم يمنحه المكافأة التي كان ينتظرها ، فأسرع  
إلى الأتراك يعرض عليهم اختراعه . ما كان البيزنطيون يستطيعون  
الإستفادة من اختراع ذلك الرجل ، فحالة أسوار مدينتهم ما كانت  
تسمح بوضع مدفع كبير عليها . على أي حال استقبل عهد الثاني ذلك  
الرجل استقبالا حسنا ، وأغدق عليه الأموال والخيرات وكل ما يصبو  
إليه من شرف ، وعرف السلطان كيف يستغاه أكبر استغلال ، وسهل  
له كل الوسائل لإتمام مخترعه . واستخدم السلطان المدفعية في ذلك  
الوقت على نطاق لم تعرفه من قبل .

\*\*\*

### (١) حصار القسطنطينية

وفي أوائل إبريل ، في اليوم الخامس منه ، ظهر الجيش العثماني  
أمام أسوار مدينة القسطنطينية ، بين دعاء العلماء والأشراف من  
آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . ظهر الجيش العثماني منظما تنظيما

---

(١) يخالف المؤلف شلومبرجر صاحب كتاب فتح القسطنطينية في فكرته  
عن قسوة السلطان وعدم إرتباطه بالوعود .  
ولقد أخطأ شلومبرجر في أسماء القواد العثمانيين الذين اشتركوا في الحرب .